الشاعر المغربي محمد بنعمارة في آخر كلماته:

الذهاب بعيدا إلى نفسي

سقطت ورقة من شجرة شعراء المنطقة الشرقية بالمغرب برحيل الشاعر محمد بنعمارة الذي رفع لواء الشعر عاليا، فدواوينه «الشمس والبحر والأحزان، عناقيد وادي الصمت، نشيد الغرباء، مملكة الروح، السنبلة، في الرياح وفي السحابة..» شاهدة على رحلة طويلة من العطاء في مجال الكلمة والإبداع.

وتشهد برامجه الإعلامية خاصة برنامج «حدائق الشعر» على كلمته المسموعة النافذة إلى الأعماق التي علمت الناشئة حب الشعر والتفاعل معه. كما زين هذه المسيرة الشعرية بتجربة روحية مفعمة بالحب الإلهي والمناجاة الروحية. توجها بموضوع (الأثر الصوفي في القصيدة العربية المعاصرة) الذي نال به شهادة دبلوم الدراسات العليا، و(الصوفية في الشعر المغربي المعاصر: المفاهيم والتجليات) الذي كان موضوع شهادة الدكتوراه.

وبعد صدور ديوانه «الذهاب بعيدا إلى نفسي» الذي نشر بعد رحيله في (١٤/٥/٢٠٠٧م)، والذي احتفى به أصحاب الكلمة في الحفل الذي أقامه اتحاد كتاب المغرب/فرع وجدة. تستوقفنا هنا هذه التجربة التي تلح علينا أن نعرف بها ونضيء بعض جوانبها.

د . عيسى الدودي - المغرب

◁ رسالة الشعر والشعراء:

للشاعر تجربة طويلة مع الشعر، وهذه الرحلة امتدت من العام العاشر من حياته إلى آخر يوم في حياته، وظل طول هذه المدة يعشق الحروف العربية ويهوى الشعر هوى عميقا. وكم كان إعجابه كبيرا بزمرة من الشعراء من المغرب والمشرق الذين أبى إلا أن يذكرهم في ديوانه ويخصهم وقصائد تصدح بالحب والوفاء، فعبد الكريم الطبال شعره خمر حلال وقصائده مستوحاة من لبيد، وأحمد شراك شريك في الحياة ووَفِيّ بعد الممات عندما خص هذا الديوان بمقدمة عنونها «على سبيل الرحيل»، جاء

فيها :الذهاب بعيدا إلى نفسي.. ديوان يعكس خارطة التجربة، جمعه ورتته وأصدقاؤه الخلص، ممتد على صعيد التوقيع إلى التسعينات، إلى لحظة اعتلال الجسد، إلى عتبة الذهاب بعيدا إلى الأصل، إلى النفس».

أما محمد المعزوز صاحب «مملكة الشعراء» و«النقدية الجمالية العربية» فهو سطر في طوق الحمامة، وريشة في قمري يطير. وحين كان يرى فحول الشعراء يغادرون ويرحلون من هذه الدنيا ومن مملكة الشعر، كان يرى خريفا معه ستنضب أنهار الشعر، فحزن وتألم لرحيل الكثير منهم.

محمد بنعمارة

◁ الهم السياسي والالتزام الإسلامي.

اختارالشاعر منذ أن جنح للشعر وجنح الشعر إليه أن يعانق الهموم والمآسي التي حلت بأمته والتي ظل يتطلع إلى أن تعود لمجدها وريادتها، لكن هيهات أن تتحقق التجربة المنشودة لشاعراستحوذت عليه النظرة الأفلاطونية للواقع. وليس غريبا على أصحاب الكلمة أن يصابوا بالإحباطات والانتكاسات المتتالية التي يعجزون على مقاومتها ولا يجدون عزاء إلا في تجربتهم الشعرية الحالمة التي تندب حظها وتتألم لمصير الأرض والوطن والمبدأ. ولئن كانت الهزائم التي عايشها الشاعر تتوالى، ما إن يخف وقع الصدمة الأولى حتى تحل صدمة أخرى أدهى منها وأمر، فإن ذلك كان مدعاة للشكوى من بعض الحكام الذين أصابهم الضعف والخور وفرطوا في الأرض والدين والعرض، كما أغاظه المتآمركون والمتهودون والخائنون المتخاذلون الذين تنكروا للمبادئ والقيم، فليس ثمة مانع من أن تصلهم سهام الشاعر.

وإلى جانب الهم السياسي وجد الشاعر في الدين ملاذا وموئلا، مادام أنه رمز لسُمُوِّ النفس وصفاء الروح وطهارة الجسد، ومادام فيه كذلك ما يخلص المجتمع من الظلم والفساد والنفاق. ويروم من ذلك العودة إلى منهج النبي الكريم في الدعوة للاستقامة واتباع السبيل القويم. وإنه وإن علت النبرة الدينية عند الشاعر في أواخر حياته عندما أحس بدنو الأجل، فإن أشعاره التي سطرها خلال عقود من الزمن كانت شاهدة على دفاعه عن الدين ودعوته للالتزام به والذود عنه، والذي يكاد يخترق جميع دواوينه، ولعل هذا العمل الجليل الذي توخى منه صلاح الدنيا والأجر في الآخرة سيكون شفيعا له عند العلي القدير، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

◁ بغداد في الذاكرة والوجدان:

عندما سقطت بغداد سقطت قطعة من قلب الشاعر، لأنه كان يعلم أن كثيرا من أوراق الثقافة والأدب والفن والإبداع سيتوالى سقوطها على أيدي المحتلين والمتساقطين في أحضانه، ولأن بلاد الشعراء والكتاب والفنانين والمثقفين ستكون عرضة للنهب والتخريب على أيدي المحتلين ومن تبعهم من التافهين التائهين الذين سيعبثون بهذا الإرث التاريخي استجابة لأحقادهم التاريخية وأهوائهم الذاتية متناسين أن ما يقومون به هو معول هدم في حضارة إنسانية أثرت في الشرق والغرب، ومدت جسور التواصل بينهما، فشتان بين الإنسانية والهمجية!؟

إنها للحظة تاريخية حزينة أن ترى بلاد المتنبي وأبي تمام وابن الرومي والمعري وابن سينا وابن الهيثم

والفراهيدي وزرياب والجواهري والرصافي والسياب ونازك.. يبتلعها تجار الحروب والأحقاد الذين أفرغوا العراق من تحفه ومآثره التاريخية التي انتقلت بقدرة قادر إلى عواصم العالم الغربي، والذين قاموا بتصفية الكفاءات العلمية من العلماء والخبراء والباحثين وأساتذة الجامعات. فالهمجية لا تقدر الحضارة الإنسانية التي مرت بهذا البلد العظيم، ومن أراد أن يعدم التاريخ والحضارة فهو واهم حالم.

وكيف لا يتأسف الشاعر على عاصمة الرشيد وهو الذي زارها وأعجب بحضارتها وشموخ تاريخها؟ وشاء الله أن يصارع المرض الذي ألم به والحرب مستعرة في بلاد الرافدين.

وهكذا احتلت مأساة العراق حيزا مهما من ديوانه إذ خصه بقصائد مثل «الفرنج والأمراء . استبسلوا . ملحمة بغداد».

◁ وصية لابد منها:

كان الشاعر يرى في حفيده نزار امتدادا لشخصيته، ونبتة ستنمو وتترعرع حتى تصبح شجرة طيبة، فأسدى إليه هذه الوصية كي تكون نبراسا له يسير على خطاها وهداها، فتجربة الجد لابد وأن يأخذ بها كل من الابن والحفيد ما دام قد جمع فيها خلاصة حياته وباكورة تجربته، ونورد هنا القصيدة كاملة لأهميتها ونفسها التربوي الأبوي:

يا أروع
يا أغلى
يا أحلى طفل عندي
يا بسمة صبح وادي
كن لرفاقك في المؤتمر
ضوءا..
كن أنت الهادي والمهدي
قل أوصاني جدي
أن أحمل وردة حب الله
وحب الناس
وأن أومن بالتاريخ..وبالفكر..
وبالمجد
كن سيد نفسك
وارفع رأسك بالدين وبالأخلاق
وخذ هذا المشعل بعدي ■